حسـن الخلـق

من الفضائل التي دعا إليها الإسلام ورغَّب فيها وحثَّ على التخلق بها: التحلي بحسن الخلق، كالصبر والحلم والرفق، والصدق والأمانة، والرحمة ، والوفاء ، والكرم ، والحياء ، والتواضع ، والشجاعة ، والعدل والإحسان، وقضاء الحوائج ، وغض البصر ، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه وطيب الكلام ، وحسن الظَّن ، وتوقير الكبير ، والإصلاح بين النَّاس، والإيثار، ومُراعاة مشاعر الآخرين ، وغيرها من مكارم الأخلاق.

وقد وردت بذلك نصوص الكتاب والسنة ، ومن ذلك قوله سبحانه آمرًا رسوله (صلى الله عليه وسلم) : {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]، وقوله تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة: ٨٣]، وقوله تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء: ١١٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ومن تأمل آيات القرآن ودقق النظر فيها ظهر له آيات كثيرة تدعو إلى مكارم الأخلاق، ووجوب التحلِّي بها، وما ذلك إلا لكون الأخلاق ميزانًا شرعيًّا يهذّب الإنسان ، ويرقى به إلى مدارج الكمال.

كما أكدت نصوص السنة النبوية المطهرة على أهمية الأخلاق في حياة الإنسان، مبينة الأجرَ العظيم لمن تخلق بالأخلاق الفاضلة، ومن ذلك قوله (صلَّى الله عليه وسلَّم) : (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ) (رواه مسلم). والبرّ: اسم جامع لأنواع الخير. وقوله (صلَّى الله عليه وسلَّم) : (مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ في الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ)، وفي رواية: (مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ) (رواه الترمذي).

ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) كثيرًا ما يحثُّ الأمة على مكارم الأخلاق ويرغب فيها ، فمرة يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِكُمْ) (رواه أحمد)، وسئل (صلى الله عليه وسلم) : أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ : (أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)(رواه ابن ماجه)، ولما سُئِلَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عَنْ أَكْثَرِ مَا يدخل الناس الجنة، قَالَ: (تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ) (رواه الترمذي)، ثم جعل النبي

(صلى الله عليه وسلم) مكارم الأخلاق من أسباب محبته ، فقال: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا) (رواه الترمذي).

لقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ترجمة حقيقية واقعية ومجسدة لتلك الأخلاق ، ومن هنا وجدنا كتب السير والشمائل تهتم بتخصيص مباحث في دراسة خُلُق النبي (صلى الله عليه وسلم) نظريًّا وعمليًّا، وهذا يُوضِّح مدى المكانة العليَّة للأخلاق في الإسلام.

ولقد ربَّى النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه على مكارم الأخلاق وحسنها، وأمرهم أن يتزينوا بها ويتمسكوا بأحسنها، حين قال لأبي ذر(رضي الله عنه): (اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) (رواه الترمذي)، فتعلموا الرفق والعفو والإحسان، وتخلصوا من العصبية والغضب بالحلم والصفح، كما ضربوا أروع الأمثلة في جمالِ الخلق وحسن المعاملة والعطاء أفرادًا وجماعاتٍ، فلما هاجر الرسول من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وآخى بين المهاجرين والأنصار كان الأنصاري يعرض على أخيه المهاجر أن يشاركه ماله، فالأخلاق الإنسانية تقوم على مبدأ العطاء، وقد أطلعنا القرآن الكريم على نماذج رائعة ليست مقصورة على أفراد معينة، بل أصبحت صفة للمسلمين عامة، قال تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}[الحشر: ٩].

لذلك كانوا بهذه الأخلاق سادةَ الأمم، ومحطَّ الأنظار، وموضعَ القدوة، حين كانوا متمسكين بأخلاقِهم السامية، دخل الناس في دين الله أفواجًا لما يرون من حسن المعاملة، وجميل الأخلاق، وحين بدأ الإعراض عن هذا المنهج القويم وساءت أخلاق الناس؛ فُقدت القدوة وضاعت القيم، وتبدلت المفاهيم، وصدق الإمام مالك (رحمه الله) حين قال: (ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

فالأخلاق الفاضلة هي التي تعصم المجتمعات من الانحلال، وتصونها من الفوضى والضياع، فسلامة الأمة وقوة بنيانها، وسمو مكانتها وعزة أبنائها، بتمسكها بالأخلاق الفاضلة، كما أن شيوع الانحلال والرذيلة نتيجة لنبذ الأخلاق والأفعال الحميدة.

صَلاحُ أَمرِكَ لِلأَخلاقِ مَرجِعُهُ ... فَقَوِّمِ النَفسَ بِالأَخلاقِ تَستَقِمِ

وَالنَفسُ مِن خَيرِها في خَيرِ ... وَالنَفسُ مِن شَرِّها في مَرتَعٍ وَخِمِ

لذا كان التحذير من انهيار الأخلاق وتردِّيها ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا) (رواه الحاكم في المستدرك)، والسَّفْسَافُ: الْأَمْرُ الْحَقِيرُ، وَالرَّدِيءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ضِدُّ الْمَعَالِي وَالْمَكَارِمِ.

فبالأخلاق تحيا الأمم وتبقى آثارها خالدة، وبزوالها وانهيارها تنهار الأمم وتسقط، فكم من حضارات انهارت لا بسبب اقتصادها، أو قوتها العسكرية – فحسب–، وإنما بتردي أخلاقها، يقول الشاعر:

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ ** فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

ثم إن العبادات في الإسلام ليست شعائرية فقط ، وإنما هي شعائرية وتعاملية معًا ، فالعبادات التعاملية هي أن يلتزم الإنسان بالأخلاق الحسنة فيكون أمينًا متواضعًا عدلًا ، لا يغش ، لا يخدع ، لا يكون مهملاً...وهكذا، ولذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) بيّن للأمة أن العبادات ليست شعائرية وفقط وإنما شعائرية وتعاملية، ولا تصح الشعائرية بدون التعاملية .

فإن الإسلام ليس طقوسًا جوفاء تؤدى في المسجد ولا علاقة لها بالواقع، فيخرج المصلي بعدها ليغش ويحتكر، ويؤذي جاره، وإنما العبادات شرعت في جميع الأديان لترتقي بالإنسان، وتسمو بأخلاقه، ففريضة الصلاة أبان الله (تعالى) الحكمة من إقامتها، فقال تعالى:{اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ}[العنكبوت: ٤٥]. فالإبتعاد عن الرذائل، والتطهر من سوء القول والعمل، هو حقيقة الصلاة ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم): (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِي، وَلَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِي، وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي، وَرَحِمَ الْمِسْكِينَ، وَابن السَّبِيلِ وَالأَرْمَلَةَ، وَرَحِمَ الْمُصَاب)(رواه البزار)، وعن ابن مسعود (رضي الله عنه): (مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلَاتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا) (رواه الطبراني بإسناد صحيح).فالذي لا تأمره صلاته بالبعد عن الرذائل من القول والعمل، فإن صلاته لم تُحقق مقصداً من أهم مقاصدها.

وكذلك الزكاة، والصيام، والحج، وسائر العبادات، شرعت كلها لتزكية النفس، والارتقاء بها إلى مكارم الأخلاق، فقال تعالى عن الزكاة: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[التوبة: ١٠٣]، ومن أجل ذلك وسَّع النبي (صلى الله عليه وسلم) في دلالة كلمة الصدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم): (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ تُكْتَبُ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الشَّوْكَةَ وَالْحَجَرَ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الضَّالَّ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) (رواه البزار).

وفريضة الصوم عبادة من العبادات التي فرضها الله على عباده من أجل تحقيق التقوى، فالثمرة والغاية التي يريدها ربنا سبحانه من الصيام هي تقوى الله (عز وجل)،قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة: ١٨٣]. فمن خلال الصيام تتقوى إرادة المسلم، ويتعود على ضبط أخلاقه وشهواته، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ) (رواه البخاري).أي ينبغي أن يعصمه صومه عن الأخلاق السيئة وعن الرذائل ، فالصوم لابد وأن يؤثر في سلوك المسلم ويهذب أخلاقه.

وقال تعالى عن فريضة الحج: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ}[البقرة: ١٩٧]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) (رواه مسلم).

فالعبادة لابد وأن تترك أثرًا إيجابيًّا يعود على الفرد والمجتمع ، فإذا لم تؤثر هذه العبادة في خلق الإنسان وتهذيب سلوكه فلا قيمة لها ولا ثمرة لها في الآخرة ، لأن سوء الخلق يأكل تلك العبادات وتلك الحسنات كما تأكل النار الحطب ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ) ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، قَالَ: (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ

عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) (رواه الترمذي)، ولما سأل رجلٌ رسولَ الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: (هِيَ فِي النَّارِ)، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: (هِيَ فِي الْجَنَّةِ) (رواه أحمد).

إن مكارم الأخلاق ليست قاصرةً على الفرد فقط، فهناك الأخلاق الفردية التي يلتزم بها الفرد من الأوامر والنواهي...إلخ، والأخلاق الأسرية بين الزوجين، وبين الأبناء والآباء، والأقارب والأرحام...إلخ، والأخلاق الاجتماعية داخل المجتمع في البيع والشراء والجوار والعمل ..إلخ ، والأخلاق الدولية بين الدول وبعضها، وأخلاق الحرب والسلم.

ومن الأمور التي تساعد العبد على حسن الخلق:

- الإخلاص لله تعالى.
- الدعاء بحسن الخلق.
- مجاهدة النفس وشهواتها.
- محاسبة النفس دائما.
- النظر إلى مآلات سوء الخلق وما يجره على الفرد والمجتمع من مفاسد.